[٢٥ - ١٠ - ٢٠٠٨]

الأهرام

مقالة سياسية

فردوس العصر والقلب يدق يسارا

ذات مساء، وبينما كان الناس يتهيئون يتأهبون للاستمتاع بسهرة رائعة وناعمة بعد يوم عمل شاق.. دوى نبأ أثار دهشتهم.. فقد استقال مسئول كبير من منصبيه الحزبى والوزارى... واكتفى بالقول تفسيرا لقراره المفاجىء : «حان الوقت لأن أرعى شئون أسرتى».

ولم يصدق أحد هذا التفسير.. فقد كان أوسكار لافونتين هو السياسى الألمانى الذى حقق أسهما فى تحقيق التحول التاريخى بفوز الحزب الاشتراكى الديمقراطى فى انتخابات عام ١٩٩٧ الفاصلة التى اسفرت عن تقلد جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية للسلطة... ولهذا قال العالمون ببواطن الشئون الألمانية إن أوسكار زعيم الحزب الاشتراكى ووزير المالية كان غاضبا من مؤشرات توحى بانصياع المانيا لاقتصاد السوق الحرة، على الطريقة الأمريكية ـ وكان يرى ان هذا التوجه يهدر تراث القيم الاجتماعية الراسخة التى اعتصمت بها المانيا عقب دمار الحرب العالمية الثانية... وهو ما حقق لها الاستقرار السياسى فى ظل «المعجزة الاقتصادية» التى أينعت ثمارها فى الخمسينيات والستينات من القرن العشرين.

كونراد أديناور

ولم تمض أشهر على استقالة أوسكار لافونتين، حتى نشر كتابا مهما يوضح فيه موقفه من قضايا العصر، وكان عنوانه موحيا ومعبرا : «القلب يدق يسارا».. وهنا يتعين الاشارة إلى أن أوسكار ينتمى إلى تيار الاشتراكية الديمقراطية الأوروبية... ويتبوأ موقعا متقدما فى اليسار الأوروبى... ويحلو لصحف اليمين أن تطلق عليه «أوسكار الأحمر»..

وأيا مايكن الأمر، فإن موقعة استقالة أوسكار كانت انذارا مبكرا بأن الرأسمالية الأمريكية الجامحة التى تسعى واشنطن لفرضها على بقاع الدنيا ليست الفردوس الأرضى المنشود، وإنما هى «سوبر ماركت» كبير يتحول فى غمار إغراءاته الافراد من مواطنين إلى مستهلكين..

وهنا يقول الراوى... لقد شاءت ظروف عملى كصحفى أن أمضى نحو أربع سنوات فى المانيا... وكانت استقالة أوسكار بالنسبة لى من أبرز الأحداث التى تضىء دروب السياسة، وتفصح عن المعنى الحقيقى للسياسى الحريص حقا وصدقا على مصلحة الوطن والمواطنين.. ذلك أن المانيا كانت تتعرض آنذاك لضغوط زمن العولمة الأمريكى... وهو ما كان يهدد الفردوس الأرضى الذى شيده الآباء المؤسسون لألمانيا الغربية بعد الحرب، ألا وهو «يوتوبيا» دولة الرفاه الاجتماعى...

ويضيف الراوى ان المستشار الألمانى كونراد أديناور الذى تولى السلطة من ١٩٤٩ إلى ١٩٦٣ ووزير اقتصاده اللامع لود فيج ايرهارد قد رفضا رفضا مطلقا الرأسمالية الأمريكية، وابتدعا نموذج السوق الحرة الاجتماعية كمنهاج لتحقيق رأسمالية رشيدة، وعدالة اجتماعية... وكان الهدف الرسمى تحصين المانيا من احتمال ظهور طاغية جديدة مثل النازى هتلر الذى فجر الحرب العالمية الثانية المدمرة.. وترسيخ الاستقرار السياسى.

وأغلب الظن أن أوسكار عندما استقال احتجاجا على محاولات النيل من نظرية السوق الحرة الاجتماعية، لم يكن يفطن إلى أن زمنا عجيبا وغريبا سوف يجمع فيه جورج بوش الابن رافعا راية السوق الحرة، ويطلق العنان لسماسرة السوق الذين يحولون الرأسمالية إلى مضاربة مالية... وهو ما فجر زلزال أزمة النظام المالى العالمى... وبات المخرج الوحيد من الأزمة على حد تعبير الرئيس الفرنسى ساركوزى هو تأسيس رأسمالية ذات وجه إنسانى..

مرحى أوسكار لافونتين.. «القلب يدق يسارا» .. لا ريب فى ذلك ولا جدال.

محمد عيسى الشرقاوى